المحاضرة الثامنة: الازدواجـــــية اللغـــوية

أصبحت هذه الظاهرة اللغوية الاجتماعية تمثل حالة عالمية خاصة تشترك فيها الجماعات اللسانية المتعددة، من منطلق أن كل جماعة لغوية تتكلم أكثر من لغة نتيجة الصراع اللغوي القائم في بيئة اجتماعية جغرافية واحدة، يتقاسم فيها السواد الأعظم من المتخاطبين مجموعة من الأنساق الثقافية والقواسم المشتركة والعادات والتقاليد لتحقيق التواصل اللغوي.

1/ الازدواجية اللغوية (Bilinguisme):

تعدّ الازدواجية اللّغويّة من الظواهر اللغوية التي تنتشر بكثرة في المجتمعات، فهي ليس ظاهرة استثنائية، بل ظاهرة مألوفة وجدت منذ وجود الإنسان، وميزة أغلب سكان المعمورة، والتي منها الجزائر، فما المقصود بالازدواجية اللغوية؟ وماهي أهم مظاهر هذه الظاهرة اللغوية في الجزائر؟

أ/ مفهوم الازدواجية اللغوية: يذهب الباحثون إلى أنّ مصطلح الازدواجية هو ترجمة للمصطلح الفرنسي (Bilinguisme)، وقد اختلف الدارسون في تعريف هذا المصطلح نظرا لتداخله مع مصطلح الثّنائية اللّغويّة، إلّا أنّ كثيرا منهم يتفق على أنّ الازدواج اللّغوي هو قدرة الفرد أو الجماعة على استعمال نظامين لغويين مختلفين كاستعمال اللغة العربية واللغة الفرنسية في الجزائر، ويعرفها "عبد الباسط متول" قائلا: "يعني الازدواج اللغوي استخدام لغتين مختلفتين في وقت واحد"[1]، ويذهب "أميل يعقوب" إلى أنّ الازدواج اللغوي هو: "وجود لغتين مختلفتي الجذر كالفرنسية والألمانية أو كالعربية والأرمينية مثلا عند مجتمع ما"[2]، وجاء في قاموس " Le petit Rebert" أنّ الازدواجية اللّغوية هي "Personne qui parle deux de langues"[3]؛ أي استعمال الفرد للغتين اثنتين، ويرى أندري مارتين(Andrée Martinet) أنّ الازدواجية اللّغويّة عبارة عن: "وضعية لغوية تستعمل فيها لغتان قويتان من حيث التّطور والشّيوع استعمالا متساويا"[4]، وعليه

يمكن القول أنّ الازدواجية اللّغويّة هي قدرة الفرد على استعمال نظامين لغويين مختلفين ويشترط بعضهم في هذا الاستعمال أن يكون استعمالا متساويا وشاملا لمختلف المجلات الحياتية، وإذا ما أسقطنا هذا التّعريف على الواقع اللّغوي الجزائري نجد أنّه ينطبق على مجموعة من الأزواج اللغوية بحكم التّعدد اللّغوي الذي تشهده الجزائر.

2/ الازدواجية اللغوية في الجزائر:

يربط أغلب الدارسين الازدواجية اللّغويّة في الجزائر بالزوج اللغوي (اللغة العربية/ اللغة الفرنسية)، باعتباره من أقوى وأكثر الأزواج اللّغويّة المنتشرة في الجزائر، ونظرا للمكانة القوية التي تحتلها اللغة الفرنسية في السّاحة الثّقافيّة والاجتماعية والاقتصادية والسّياسيّة في الجزائر ونظرا لانتشارها بين المواطنين بحكم وجودها التاريخي والذي قدر بـ130 سنة، إلّا أنّ تتبع الواقع اللغوي الجزائري يظهر لنا تواجد أنواع أخرى من الازدواج اللّغوي التي لها حضور قوي في الواقع اللّغوي، والتّعليمي في الجزائري، وفيما يلي عرض لأهم هذه الأنواع:

أ_ اللغة العربية/ اللغة الأمازيغية: يعدّ هذا النّوع من الازدواج من أشهر أنواع الازدواج اللّغوي الموجود في الجزائر، على الرغم من أنّه لم يكن ظاهر للعيان، بحكم التّعايش السّلمي الذي كان بين اللغتين العربية والأمازيغية؛ "فلم يكن السّكان ذووا الأصول العربية هم وحدهم الذين يتكلمون العربية، ولكن أيضا السّكان ذووا الأصول الأمازيغية الذين كانوا يشكلون أغلبية سكان المدن _لا نتوفر إلى حدّ السّاعة على إحصائيات دقيقة تسمح بالجزم_ إنّ أغلب المؤلفين الذين كانوا يكتبون بالعربية كان أصلهم أمازيغيا ...أو نقلا أمازيغيا عربيا على أقل تقدير، ومن جهة ثانية فقد وجدت كذلك مجموعة من السّكان العرب الذين تمت أمزغتهم (Berberisés)، وبهذا المعنى يمكن القول أنّ الزوج اللّغوي (عربية/ أمازيغية) كان يجري العمل به على نطاق واسع منذ القرن الخامس عشر"[5]، إلّا أنّ اللغة العربية كانت، ولا تزال لغة المجالات الرّسمية، ولغة

التعليم، ولغة استمدت شرعيتها من الدستور، بينما بقيت اللغة الأمازيغية، وإلى أمد بعيد لغة شرّعها التاريخ، لتصبح مؤخرا لغة شرعية دستورية كلغة وطنية[6].

وتجدر الإشارة هنا أنّ هذا النّوع من الازدواجية اللّغويّة ينتشر بكثرة في المناطق التي يتحدث سكانها باللغة الأمازيغية؛ لأنّ أغلب النّاطقين بالأمازيغية _إن لم نقل كلهم_ يتكلمون اللغة العربية، بحكم أنّها لغة التّعليم في جميع الأطوار التّعليمية في الجزائر، ولغة العبادة، بها يقرؤون كتاب الله[7]؛ فاللغة العربية بالنّسبة لهم ليست لغة للتواصل مع العرب فقط، بل هي بالنّسبة إليهم بمثابة لغة ثانية.

ب_ اللغة العربية الفصحى/ اللغة الفرنسية: ارتبط ظهور هذا النّوع من الازدواجية بوجود الاستعمار الفرنسي في الجزائر، وتعدّ هذه الازدواجية مظهرا من مظاهر الصراع اللغوي في الجزائر، بحكم أنّ وجود اللغة الفرنسية لا يرتبط بمرجعية دينية أو اجتماعية، أو أهلية عرقية إنّما يرتبط بوجود الاستعمار الفرنسي، وفرض هذه اللغة بالقوة على السّكان الجزائريين إبان الاحتلال، والأمر الذي جعل اللغة الفرنسية تنافس اللغة العربية، وتحظى بمكانة تضاهي مكانة اللغة العربية في المجتمع الجزائري، وجعل مفهوم الازدواج اللغوي يرتبط باللغة العربية واللغة الفرنسية.

وقد سارت هذه المزاوجة اللّغويّة (عربية/ فرنسية) في الاتجاه السياسي، وأصبح لها أنصار ودعاة يحمونها، يثبتون وجودها في المجتمع الجزائري بكل مؤسساته، مما أدى إلى ظهور طائفتين اثنتين*:[8]

_تيار عروبي: وهو التّيار المحافظ، المتمسك بالقيم العربية والاسلامية، يدعو إلى اعتماد اللغة العربية وحدها، ويرفض كل ما له علاقة باللغة أو الثقافة الفرنسية، رافضا لكل أنواع الازدواجية اللّغويّة، سواء كان بين العربية والفرنسية، أو بين العربية ولغة أخرى، ويعدّ أحمد طالب الإبراهيمي* من رواد هذا الاتجاه، حيث يقول متحدثا عن الازدواجية اللغوية: "...فإذا كان

المقصود بذلك هو الازدواجية العقائدية التي تتخذ اللغة العربية أداة التّعامل بين العوام والجماهير الشّعبية، وتجعل من اللغة الفرنسية لغة المدرسة والنّخبة المثقفة، فإنّنا لا نرضى بذلك لأنّ هذه الازدواجية التي يَدَّعي البعض بأنّها تمثّل الواقع الثّقافي في الجزائر، وتعتبر عندنا من الاختبارات الأساسية مثل هذه الازدواجية لا تستند إلى دليل من المنطق القويم والعقل السليم"[9] فاللغة العربية حسب هذا التّيار لغة مقدسة، ولغة شرعية لا يجب أن تنافسها أيّة لغة مهما كان نوعها.

_تيار مفرنس: ويرى أنصار هذا التيار أنّه لابد من الإبقاء على اللغة الفرنسية إلى جانب اللغة العربية، باعتبار أنّ اللغة الأجنبية عموما، واللغة الفرنسية على وجه الخصوص، هي بالنّسبة للجزائر بمثابة المنفذ الذي يمكن من خلاله الانفتاح على العالم، وعلى الحضارة، حيث يرى أصحاب هذا الاتجاه أنّ "الجزائر استقلت، ولم يكن للعربية وجود في المدرسة الجزائرية، وإنّ اللغة التي كانت مستعملة، وكان يفهمها الشّعب الجزائري هي اللغة الفرنسية، ويضيفون إلى هذا، أنّ هذه الأخيرة متطورة جدا، وصالحة للفنون والعلوم في حين أنّ العربية لاوجود لها، وهي متأخرة وعاجزة عن إحداث نهضة ثقافية وعلمية في بلادنا"[10]، وإنّ ظهور هذين التّيارين وتمسك كل واحد منها برأي زاد من شدّة الصراع القائم بين اللغتين العربية والفرنسية، وتعدّ هذه الازدواجية اللّغويّة بين العربية والفرنسية، أحد أهم مظاهر التّداخل اللّغوي في الجزائر، ولها تأثيرات كبيرة على تعليم اللّغات في المدرسة الجزائرية، بحكم التّداخلات القائمة بين اللّغتين والتّأثيرات المتبادلة بينهما، مما انعكس على تعلّم التّلميذ للغات الأجنبية _الفرنسية_، وتعدّ هذه التأثيرات المتبادلة بين اللّغتين والتّداخلات الحاصلة بينهما، وأثرها على تعلّم الطفل للغة الفرنسية.

ج_ اللغة الأمازيغية/ اللغة الفرنسية: وينتشر هذا الزوج اللّغوي بكثرة في مناطق القبائل، وتوجد علاقة حميمة بين مستعملي هاتين اللغتين، فكثيرا ما يستخدم متحدثو اللغة الأمازيغية اللغة

الفرنسية في تواصلهم اليومي، وفي التّعليم والإدارة، ويجيدون استعمالها، وفي هذا الصّدد تقول "صونيا بكال": "يُشكّل المتكلمون باللغة الأمازيغية نسبة 20% أقل تقدير، ثم إنّ الكثير من المتكلمين بهذه اللغة يجيدون اللغة الفرنسية بهذا يمكنني القول بأنّ هذه ازدواجية لغوية"[11]، فكل النّاطقين باللغة الأمازيغية _تقريبا_ يتقنون اللغة الفرنسية، وهذا إن دلّ على شيء؛ فإنّما يدلّ على وجود هذا الزّوج اللّغوي، وانتشاره بقوة في الجزائر، وتحديدا في منطقة القبائل.

د_ اللغة العربية الدارجة/ اللغة الفرنسية: تنتشر اللغة العربية الدارجة بكثرة في المجتمع الجزائري، فهي تعدّ لغة التّواصل اليّومي لأغلب سكان الجزائر، وبحكم الوجود الفرنسي في الجزائر نجد أنّ بعض السّكان يُوظّفُون المصطلحات واللغة الفرنسية أثناء تواصلهم اليومي، وفي الأماكن الرّسمية والمواقف الجادة، ويعتقد البعض أنّ هذا يعدّ من قبيل الازدواجية اللّغويّة، إلّا أنّ الباحثة "خولة طالب الإبراهيمي" تنفي وجود هذا النّوع من الازدواج اللّغوي، قائلة: "ليس هناك ازدواجية لغوية بين هاتين اللغتين، بل يوجد أنصاف ازدواجية، لأنّه يندر الاستعمال الكلي للغة الفرنسية بين هذه الأوساط التي تتحدث اللّغتين، فمناهج الدراسة والسّياسة اللّغويّة غير الواضحة جعلت القليل من يتقن جيدا اللغة الفرنسية"[12]، لكن يمكن أن نستثني هنا بعض أساتذة اللغة الفرنسية الذين نراهم يستخدمون اللغة الفرنسية داخل القسم، واللغة الدراجة خارجه بالإضافة إلى خطابات بعض السّياسيين.

هـ_ اللغة العربية الدارجة/ اللغة الأمازيغية: وينتشر هذا الزّوج اللّغوي عند السّكان النّاطقين باللّغة الأمازيغية، ويعدّ من أضعف أنواع الازدواج اللّغوي الموجود في الجزائر، بحكم استعماله من قبل فئة قليلة جدا من النّاس، إذ يستخدمه الأمازيغ مع النّاطقين باللغة العربية، كما أنّ عدد النّاطقين باللغة العربية الدراجة أكبر بكثير من عدد النّاطقين باللغة الأمازيغية، "حيث تقدر نسبة النّاطقين بالأمازيغية في الجزائر ب20% الى 25% كحد أدنى"[13]، فاللغة العربية الدارجة تطغى على اللغة الأمازيغية، حتى أنّ هذه الأخيرة لا تُدَرَّس في جميع المدارس الجزائرية.

وإنّ هذه الأزواج اللّغويّة تُظهر بوضوح أنّ الجزائر بلد يتميز بتنوع ثقافي وتعدد لغوي كبير، ساهمت في وجوده أسباب تاريخية وعرقية واجتماعية، كما أن وجود الازدواجية اللغوية في اللغة العربية بخاصة وبقية لغات العالم بعامة ظاهرة طبيعية عفوية لا يمكن إغفالها نزرا لتفاوت الناطقين باللغة العربية ثقافيا وفكريا وابداعيا وتاريخيا، ومن ثمت بات التفكير في التفكير في الحلول المناسبة لمعالجتها أو التخفيف من آثارها السلبية.

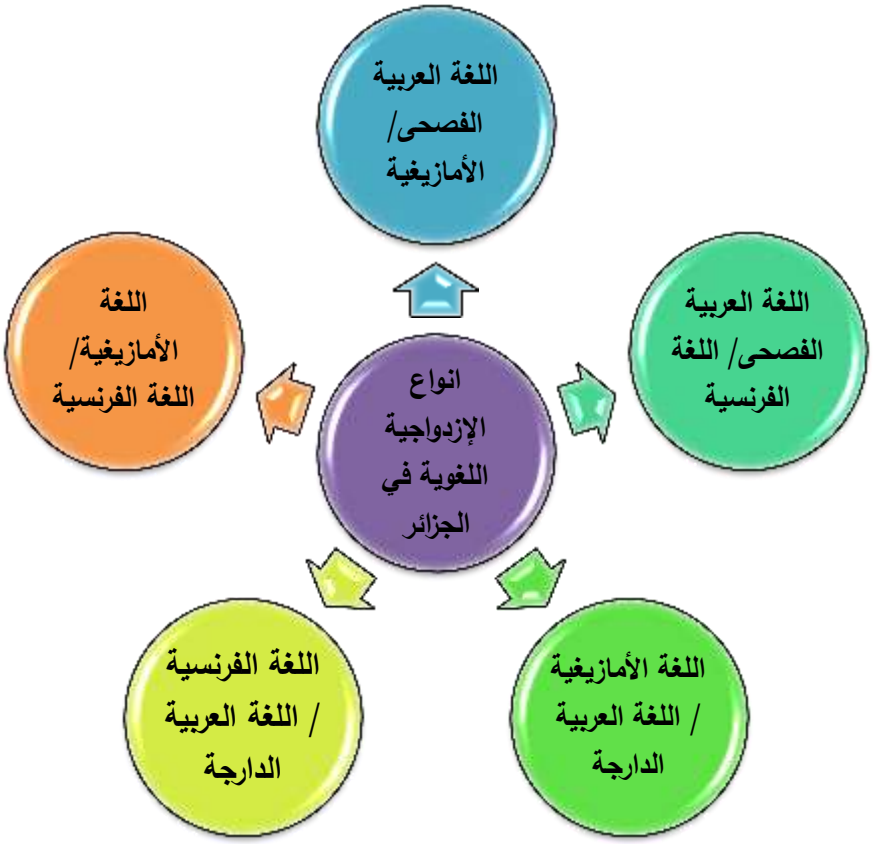

مخطط يبين أنواع الازدواج اللغوي في الجزائر

1: عبد الباسط متولي خضر، أثر تعلم لغة أجنبية في سن مبكرة على النمو اللغوي للطفل، دار الكتاب الحديث، القاهرة الكويت، مصر، (د. ط)، 2007م، ص33.

[2] : إميل يعقوب، موسوعة علوم اللغة العربية، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2006م، ص20.

[3] :Paul Repert, Le petit Rebert, Avenue Rmentier, Paris, 1996, p184.

[4] :Andrée Martinet, Les éléments de linguitique générale, Armand collin, paris, 1980, p148.

[5]: عبد السلام الشدادي، من أجل بلوة ناجحة في ميدان اللغة، مجلة مقدمات، المغرب، ع7، 1999م، ص8، 9.

[6]: ينظر: ربيحة وزان، أثر الواقع اللغوي للمجتمع الجزائري في تعليمية اللغة العربية الفصحى _دراسة اجتماعية_، ص28.

[7] : ينظر: محمد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د. ط) 2003م، ص224.

[8] : ينظر: ربيحة وزان، أثر الواقع اللغوي للمجتمع الجزائري في تعليمية اللغة العربية الفصحى _دراسة اجتماعية_، ص29.

[*]: وزير سابق للدولة الجزائرية، وابن العلامة محمد البشير الإبراهيمي، وأحد أهم أعضاء فدرالية جبهة التحرير الوطني.

[9] : أحمد طالب الإبراهيمي، من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية، تر: حنفي عيسى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، (د. ط)، 1972م، ص162.

[10] : محمد مصاريف، في الثورة والتعريب، الحركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981م، ص101.

[11] : بكال صونيا، الازدواجية اللغوية، مجلة اللغة الأم، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، 2004م ص136، 137.

[12]: Khaoula Taleb Ibrahimi, les Algériens et leur(s) langue (s), p50.

[13] : ربيحة وزان، أثر الواقع اللغوي للمجتمع الجزائري في تعليمية اللغة العربية الفصحى _دراسة اجتماعية_، ص31.